قضايا الأدب والأدباء

الرجعية الجديدة (١)

بقلم فاروق خورشيد

« ولانك لا تدري معنى الالفاظ ، فانت تناجزني بالالفاظ
اللفظ حجر
اللفظ منية
فاذا ركبت كلاما فوق كلام
من بينهما استولدت كلام
لرأيت الدنيا مخلوقا بشعا
وتمنيت الموت ...
ارجوك
الصمت
الصمت ... »

ما اعجزنا امام اصحاب الكلمات حين يمرون مر العميان على اشلاء الجسد الممزق والدم يقطر من الجراح المفتوحة ، والشرط الماضي في يد الجراح يروح يرسم فوق الجسد خطوطا من دم ودوائر من عذاب ، والقيح والصديد يتعثران عند فم الجرح وهما يجهدان ان يبقيا في تشبث رهيب من رسل الموت تريد ان تختطف الحياة .. ويهمس اصحاب الكلمات .. ما اروع العملية .. وامهر الجراح ...

ما اعجزنا امام اصحاب الكلمات حين يمرون مر الصم على صرخات الالم ، وحشرجات رهيبة من حلق ملهوف متعثر الانفاس ، والوليد الجديد يشق طريقه من جسد الام يمزق في طريقه الانسجة ويهتك الجسد وينتزع كلمات الشقاء وصراخ التعاسة وصيحات الالم ...

ويهمس اصحاب الكلمات ، ما اجمل المولود ، وابرع الطبيب ....

ويقولون طوبى لمن بذل الدما ... طوبى لمن حمى الحما .. بورك لمن شق الطريق المنمنما ...

« وبورك من نما .... ألخ
(ما اضجر هذي القافية الميمية)
(لن يسكت هذا الشاعر حتى يفنى حرف الميم) »

اما الانسان حين فصد الجهد عرقه ، واحرقت الشمس المتوهجة جلدة رأسه ... فصرخ . !

اما الانسان حين ادمت الاشواك يديه تعترض طريقه نحو الزهر ... وشققت نتوءات الصخور قدميه تملأ طريقه نحو الامل ... فبكى ... !

اما الانسان حين تسللت الافاعي من كل شق تمتص دمه وتقتات عذابه ، وحين مد يده يقطف الثمر فوجد العناكب قد سبقته تغلف كل شيء بنسيجها الاسود اللزج فانهار يقتل قلبه اليأس والسأم ..

اما الانسان في عذاب الطريق ، وجحيم الصراع .. فهو عند اصحاب الكلمات ـ وما اكثر ما عند اصحاب الكلمات ـ زيف وعبث ..

تجربة صراعه ويأسه .. تجربة جهده وفشله .. تجربة ايديه الدامية تتشبث جاهدة بصخر الطريق .. كذب وغربة ..

فما الصدق ..

(خلاصة الحق في قلب الناس ، في العمل والمشاركة ومعايشة حقائق العصر) كلمات .. وكلمات ..

اليست خلاصة الحق في قلب الناس عذابهم يفتحون عليه الاعين فتنضح قلوبهم وتهتدي خطواتهم ..

اليس العمل والمشاركة في ان يفتح الشاعر اعين اصحابه على كل تناقض وكل رياء .. يمد يده الى الزيف فيعريه ، ويمد قلمه الى الستر فيرفعها ليرى الاخرون انفسهم على حقيقتها فلا يضلون ويضل ونضل جميعا ..

اليست معايشة حقائق العصر هي الصدق حين يعرض الصدق صاحبه للشبهة والاتهام ، وهي الحقيقة حين يخشى كل انسان ان يرى حقائق العصر مخفيا رأسه في الرمال .. وليس في الامكان ابدع مما هو كائن ..

ما اضخم الكلمات .. وما اجوفها ..

اخلاصة الحق في قلب الناس .. ان نزعم للناس ان الحياة ورود وهي تحت اقدامهم اشواك وقتاد .. ان نخبرهم ان الدنيا نور وهم يتخبطون بحثا عن بصيص يلوح امامهم كالامل ..

اهو عمل ومشاركة ومعايشة ان نغلق الاعين ونسد الاذان لنندفع في حلبة ذكر مخدوع ضرير ، ولا نرى الطريق لان عيوننا مشدودة بالكلمات ..

اهي معايشة لحقائق العصر ان ننسى الانسان الانسان ونسد بأيدينا اذنيه ونحجب بايدينا الرؤية عن عينه ونقول :

« احرص الا تسمع
احرص الا تنظر
احرص الا تلمس
احرص الا تتكلم
قف . !
وتعلق في حبل الصمت المبرم .. »

ويطيع اصحاب القول تحذير اصحاب الكلمات .. ولكن رغم التحذير ، رغم التهديد ، رغم التهم الرعناء تخطها الكلمات ..

« ينبوع القول عميق
لكن الكف صغيرة
من بين الوسطى والسبابة والابهام
يتسرب في الرمل .. كلام »

وما ان يتسرب قلب نابض يهمس بسر الحياة .. حتى تنهال الاحجار ترجمه من كل مكان ، باسم الانسان ، باسم الحق ، باسم الحياة الجديدة .. ترجمه وترجمه وتدميه ، وتريد لو تواريه .. لان الصوت يخيف اصحاب الكلمات ، لان الحقيقة شيء رهيب لا يقوى على مواجهته الا الانسان الانسان ، واين هو :

« الانسان الانسان عبر
من اعوام
ومضى لم يعرفه بشر
حفر الحصباء ، ونام
وتغطى بالالام .. »

ايكذب صلاح عبد الصبور حين يضع رأسه بين كفيه ويهمس هذا البكاء .. والقلب لا ينطق الا بما يجد .. والانسان الكركي في ناحية ، والانسان الثعلب في ناحية اخرى لايريدان للانسان الانسان ان يجد مكانا بينهما .. ولا يريدان لنبض قلبه ان يسمع فانه لو سمع لكشف زيف نبض الانسان الكركي وزيف نبض الانسان الثعلب ..

اليس صلاح محقا حين يحس بالغربة وهو يجد الرماح من اقصى اليمين تدفع به نحو الهاوية ، لان نبض قلبه يصم اذانها ويعمي عيونها .. ثم وهو يجد الرماح من اقصى اليسار تدفع به هي الاخرى الى الهاوية لان نبض قلبه نغم ناشز وسط موسيقى الحماس والرقص التي لا

---

(١) كتب هذا المقال ردا على مقال نقدي للاستاذ محمود العالم نشر بمجلة المصور ، وكان المفروض ان ينشر الرد في نفس المجلة ، ولكنها اعادته الينا فشئنا ان نعرضه مع هذه القضية الجديدة الى صاحبته على الرأي العام الادبي على صفحات الاداب . فاروق خورشيد .

يطربون لغيرها ..

اليس غريبا هو . ؟

بل هو غريب .. وكل جيله غريب ، جيله المخلص الذي لم يرتبط الا بفكرة الارض كما هي يعيشها لينتزع تجربته ، ويملأ راحتيه منها لتزكم انفه روائحها ، الارض وحدها هي التي تحدد فكره ، وتصوغ قلبه وترسم خطاه .. و (الملتحون) عن يمينه ينكرونه لانه يزلزل الارض تحت اقدامهم بنداء الارض .. و (الامردون) عن يساره يجحدونه لانه يحول دونهم وابتلاع عرقه وجهده واغراقه في دوامة جديدة من بحر بعيد لا يعرف طعم مائه ..

والماء في ارضنا يسيل ونحن نملأ الاكف منه ونغترف ونحميه، ونحميه، ونمرض منه ونحميه ، ويضم اجسادنا ضمة الفناء ونحميه ..

وحين لا ندين الا بما نجد ، ولا نكون فكرنا الا بما نحس ونرى لن نكون في غربة عن قرانا ابدا ، ولن نكون في غربة عن مدينتنا الحقة ابدا .. لاننا لا نخجل من المنا ولا نخجل من تجربتنا ولان حبات قلوبنا تصنع ارضنا ولان سقطات فكرنا تكون املنا ، ولان خبزنا كفافنا .. ولاننا نعرف خطأنا .. فنحن :

« حين فقدنا الرضا
بما يريد القضا
لم تنزل الامطار
لم تورق الاشجار
لم تلمع الاثمار
حين فقدنا الرضا
حين فقدنا الضحكا
تفجرت عيوننا .. بكا »

وحين يعرف هذا ، تنتهي غربته وتتضح الرؤيا في احلام الفارس القديم .. فالرحلة في الديوان ليست رحلة غربة وليست (حقا انها صدى لرحلات الضياع في الثقافة الاوروبية) كما يقول الاستاذ محمود امين العالم في كلماته عن الديوان وانما هي صدى لرحلة جيلنا في معاناته للتجربة ، معاناته الحقيقية التي شاركت في اللذة والالم ، وشاركت في الهدم والبناء ، وعاشت القلق والخوف ثم النصر والفرحة، ثم الخوف الدائم المستمر ، لانه خوف مسئول لا يتخلى عن مسئولية ولا يهابها .. وعلى هذا فلم يكن هناك مجال لمثل هذه الفقرة ـ وما اكثر شبيهاتها في كلمات الاستاذ محمود العالم ـ .

« هذا شاعر عربي شاكي السلاح ، ادواته التعبيرية في يده، وارضه تفلي بمعارك المصير ، وانسانه يستشهد ويعاني ويبني وينزف ويتطلع ويغني للفجر ويصنعه ، والشاعر يقتات السأم ، ويمضغ الضياع ويستحلب الزخرف اللفظي معاني .

ما ابشع الكلمات فيما تخفي وفيما تظهر . !

ايقتات السأم من ينشد الخلاص :

« لو مت عشت ما اشاء في المدينة المنيرة
مدينة الصحو الذي يزخر بالاضواء
والشمس لا تفارق الظهيرة
اواه ، يا مدينتي المنيرة
مدينة الرؤى التي تشرب ضوءا
مدينة الرؤى التي تمج ضوءا
هل انت وهم واهم تقطعت به السبل
ام انت حق ؟
ام انت حق ؟ »

ايمضغ الضياع من يستعذب الالم بحثا عن البعث :

« ان عذاب رحلتي طهارتي
والموت في الصحراء بعثي المقيم »

ايستحلب الزخرف اللفظي معاني من ينشد الخلاص لنفسه من نفسه :

« يا من يدل خطوتي على طريق الدمعة البريئه
يا من يدل خطوتي على طريق الضحكة البريئه
لك السلام
لك السلام
اعطيك ما اعطتني الدنيا من التجريب والمهارة
لقاء يوم واحد من البكارة »

ولكنها الكلمات ..

من اقصى اليمين يرجمون بالكلمات .. ومن اقصى اليسار يرجمون بالكلمات .. وحين يستخف الناس بالكلمات لن يجدو فضاضة مثل الاستاذ العالم حين قال كلمته القاسية :

« يا لضياع الاقتدار والموهبة .. »

اهو حقا يرى ان الشاعر ينبغي له ان يغني لان الانسان في النصف الثاني من القرن العشرين لا ينبغي له ان يغترب ، فغربته كما يقول الاستاذ العالم (نكوص وتوقف) . !

ايظن الاستاذ الناقد ان دعوته هذه جديدة ، بنت تعاليم فلاسفة المادية الجدلية وحدهم .. اذن فلينظر الى التاريخ الادبي كله ليرى انها نفس تعاليم فلاسفة اي حكم شمولي .. ان يغني الشاعر ولا يعترض .. ان يرى النور حتى ولو لم يعش الا في الظلمة ..

منذ اقدم التاريخ والرجعية الدينية ترفض الشعر الا اذا كان غناء لتعاليمها وطقوسها ورجالها .. ومنذ اقدم التاريخ والرجعية الدينية لا تثبت في دنيا الرضا الا من اهرقوا دماء كلماتهم مدحا وغناء واشادة ..

وماذا اسمينا هذا .. اسميناه رجعية ..

ومنذ احدث التاريخ واصحاب المذاهب السياسية اليوم يرون انه لن يدخل جنة رضائهم الا من تغنى بان الخلاص قد تم وان الانسان قد وصل وان كل شيء عال ..

وماذا نسمي هذا .. نسميه رجعية ..

ان احتكار الرؤيا ليست وقفا على اصحاب المذاهب المكونة الجاهزة .. بل ان غير اصحاب المذاهب يرون ، وهم في رؤياهم اصدق لان شيئا لا يغشى عيونهم ، ولان خوفا لا يملأ قلوبهم ، ولان كذبا لا يطرق السنتهم ، ولان بغضا لا يعرف مكانا في نفوسهم ..

وحين يتهم ناقد شاعرا بأن عمله (استغراق في الشعر عن الحياة .. واستغراق في الذات عن الانسان) يتهم نفسه بنقص ادواته النقدية ونقص حسه التذوقي لان هذه التفرقة المضحكة بين الشعر والحياة ، وبين الذات والانسان .. لا مكان لها الا عند من يفصلون عقولهم عن قلوبهم ..

فعند اصحاب العقول التي تحس ، والقلوب التي تدرك .. الشعر كلما كان شعرا صادقا فهو الحياة .. والذات كلما كانت ذاتا صادقة فهي الانسان .. وان اختلفا فعلى الحياة والانسان ان يراجعا نفسيهما لانهما حين تناقضا مع الشعر والذات اثبتا خطأهما وتجنبهما للطريق ، ووقوعهما في العثار والزيف ..

والفن منذ كان وحتى يكون هو الرؤية الواضحة للتناقض ، تلك الرؤيا التي تختفي عن اعين الاخرين ، والفن هو التعبير عن هذا التناقض ليراه الاخرون ويتيقظون له .. اما التصفيق والغناء فهذا شيء اخر غير الفن ، قد يكون الدعوة في جيل ، وقد يكون الدعاية في جيل ، وقد يكون الاعلام في جيل اخر .. ولكنه ليس الفن ..

وحين يرضى كل الشعراء ويصفقون تتوقف الحياة .. لان التناقض قد توقف ، ولان وجود الانسان نفسه قد اصبح بلا مبرر .. فلماذا يعيش ان لم يكن ليسير نحو الاحسن .. فان لم يكن هناك احسن فالطريق مسدود والرحلة قد انتهت ..

ان الناقد يقول ان الشاعر يعيش « في غربة عن حقائق العصر ، انه يتنفس هذه الحقائق ويستمتع بخيراتها ويشاهدها ولكنه لا يغنيها، وانما يضيع في حواريها وازقتها المغلقة ويبيت في غرفها الضيقة المؤجرة .. ولا يلتقط من ارضها غير الحصباء والاحزان والسؤم .. »

وليفن الناقد وحده حقائق العصر ان كان هذا هو ما يريد ، اما

الشاعر فهو ليس ملكا له يصنع به ما يشاء ، ان الذي يصنعه هو ما يجد وما يحس ، وانضاع في الازقة والحواري ، وان التقط الحصباء والاحزان .. انه يعبد من مدينته ضعفها وضعفه ، قوتها وقوته ،صراعها وصراعه .. يعبد فيها انها مدينته ولن ينكرها ابدا حتى لو خالفت كل ما يعتنق من نظريات :

« لقاك يا مدينتي حجي ومبكايا
لقاك يا مدينتي اسايا
وحين رأيت من خلال ظلمة المطار
نورك يا مدينتي عرفت انني غللت
الى الشوارع المسفلته
الى الميادين التي تموت في وقدتها
خضرة ايامي
وان ما قدر لي يا جرحي النامي
لقاك كلما اغتربت عنك
بروحي الظامي
وان يكون ما وهبت او قدرت للفؤاد من عذاب
ينبوع الهامي
وان أذوب آخر الزمان فيك
وان يضم النيل والجزائر التي تشقه
والزيت والاوشاب والحجر
عظامي المفتته
على الشوارع المسفلته
على ذرى الاحياء والسكك
حين يلم شملها تابوتي المنحوت من جميز مصر .. »

فهو يحكي شقاءنا في لحظة لا يريد لها ان تزول لتظل ابدا ذكرى الطريق الطويل .. والذين يعيشون التجربة باعصابهم وقلوبهم هم الذين يرون كل تفاصيلها بما فيها من شقاء وتعاسة والذين لا يعيشون التجربة هم وحدهم الذين يرفضون كل شيء الا النتائج ، وهم يأخذون من النتائج ما يروقهم .. والانسان ليس نتيجة ابدا .. لان الانسان متغير متطور ، ولان الانسان هو الانسان يتخبط ابدا بحثا وعناء ، ويصارع ابدا قوى تهزمه وتشعره بضرورة الصراع من جديد ..

« اهدابنا
اثقل من ان ترى ..
وان رأت فما يرى العميان ؟
اقدامنا ..
اثقل من ان تثقل الخطى ..
وان خطت تشابكت ، ثم سقطنا هزأة كبهلوان
نصرخ ، يا ربنا العظيم ، يا الهنا
اليس يكفي اننا موتى بلا اكفان
حتى تذل زهونا وكبرياءنا ؟ »

اجل ايها الصديق الناقد ان صلاح هو الانسان الذي لم تغلق النظرية عينيه ولم تطمس قلبه .. انه الانسان الذي فتح الاخلاص عينيه ، وايقظت التجربة قلبه .. انه الانسان في ضعفه النبيل لا يغني الا ما يجد ولو كان اغنية انكسار وضراعة وابتهال :

« يا ربنا العظيم ، يا معذبي
يا ناسج الاحلام في العيون
يا زارع اليقين والظنون
يا مرسل الالام والافراح والشجون
أخترت لي ،
لشد ما اوجعتني
الم اخلص بعد
ام ترى نسيتني ؟
الويل لي ، نسيتني
نسيتني
نسيتني .. »

وان كان الناقد يريد من يغنون ففي بلادنا الف الف ممن يريده اما نحن فنريد من يجد ، ومن يقول دون خوف من الكلمات حتى ولو كانت مليئة بالاتهامات الصريحة والفاضحة .. ومن يغنون موجودون منذ الازل وسيظلون الى الابد ما وجد (القوال والقراد والحاوي الطروب) .. اما من يجدون فهم قلة في كل ادب ، وهم قلة في كل جيل .

هم قلة لان الغناء حصادهم .. ولان التعب طريقهم ، ولان الشوك ورودهم ، ولان الاحجار كثيرة .. والراجمون في بلادنا يأخذون كل ثوب وكل لون ، ويتذرعون بكل حجة ونظرية .. ولكنهم يلتقون معا : من اقصى اليمين حيث الراحلون والقاعدون من بقايا العفن .. ومن اقصى اليسار حيث المصبون بالنظريات الملثمون بالكلمات ..

لك الله ايتها الحقيقة .. لك الله ايها الصدق .. لك الله يا اصالة التعبير والفكر ..

ولك الله ايها الشعر في بلادنا .. لك الله ..

« ينبئني شتاء هذا العام ان ما ظننته
شفاي كان سمي
وان هذا الشعر حين هزني اسقطني
ولست ادري منذ كم من السنين قد جرحت
لكنني من يومها ينزف رأسي
الشعر زلتي التي من اجلها هدمت ما بنيت
من اجلها خرجت
من اجلها صلبت
وحينما علقت كان البرد والظلمة والرعد
ترجني خوفا
وحينما ناديته ، لم يستجب
عرفت انني ضيعت ما اضعت »

فاروق خورشيد

صدر حديثا :

لا بحر في بيروت ..

بقلم

غادة السمان

المجموعة الثانية لقصاصة فرضت نفسها بقوة منذ قصتها الاولى

الثمن ٢٥٠ قرشا لبنانيا — **دار الاداب**